

الإثنين 03-02-2010

887 - أبواب وسراييب (2 من 3)



دراسة في علم السيكوپاثولوجى فى فقه العلاقات البشريه لوحات تشكينية من الحياة والعلاج النفسى شرح على المتن : ديوان اغوار النفس

اللوحة (18)

هذه الحالات ليست حالات إكلينيكية واقعية، ولا حتى متخيلة بشكل روائى شعرى طليق، ولا هى تصف أشخاصا بالذات، إنها من وحي الفروض العلمية العملية التى استلهمتها من مزيج من الحالات المرضية، والأصدقاء المشاركين، وتراكم الخبرة، وإلهامات أسطورتى الذاتية.

وصلنا فى الحلقة الأولى من هذه اللوحة إلى أن البومة التى ظهرت وراء أول باب، والتى نعتبرها عادة نذير شؤم، وإعلان عن خراب إنما كانت تندرنا بأننا نكرهها ونتشاءم منها لأنها تكشفنا "تكونوش عايزينها تحرب فى السر"، "دا خرابكم إنتم".

ونكمل السير فيما وراء الباب الأول إلى الثانى.

وأقرب أكثر مالمصوره،

وأبص فى عين البومه.

واستغرب!

دى عيونها إزاز.

عاملين كده ليه؟

حسّس، جرب، يمكن،

وألقى العين مش عين،

دى زرار، وأجرب أرق. تتحرك كُل الصورة،

والباب الثاني يُبان:

قلنا أنه برغم ما يعد أي باب مغلق بفك الطلسم إذا ما فتحناه لنعرف ما وراءه، فإننا لا نجد في هذه اللوحة وراءه إلا سرداب يغرينا بالسير إلى نهايته لعلنا نجد ما يشفى الغليل، غليل المعرفة ابتداءً.

الذي حدث أنني اكتشفت أن وراء هذا النذير الصادر من البومة المحذرة، والتي قلنا حلالاً أنها كانت تنبهنا إلى احتمال أن الخراب هو في داخلنا وليس في خارجنا كما نزع، أقول إنني حين انتبهت إلى هذا التحذير، اكتشفت أن وراءه حكمة بالغة، تمثلت لي في حكمة سيدنا سليمان بكل الحقائق والأساطير المنسوجة حوله، بما ذلك عمره، وكيف أن الجان ظل يحسبه حياً وهو ميت متكئ على عصاه، إلى أن نخرها السوس فانكسرت، فانكفاً على وجهه، فعرف الجان، لست أدري بعد كم من السنين، أنه مات، فانطلق في نشاطه العبثي والتعددي من جديد.

الجان عندي حقيقة واقعية كما الأحلام وكما الواقع سواء بسواء، كل ما في الحكاية أنني آراه وجوداً ماثلاً في داخلنا، كما أرى الأحلام بما هي، لا بما تحكيه عنها كأنها هي، وجوداً ماثلاً أيضاً يكملنا، وهذه الرؤى (الفروض) تسهل الأمر على وأنا أتعامل مع مريضاً حين يسألون عن إيمان بوجود الجان، فأقر بصدق أنني أفعّل، وأحترم، وأفهم مع هذه الذوات الأخرى بما يفيد الكل النامي، كل الفرق أنني أسميها أسماء علمية أحياناً، وأتعامل معها باحترام يسمح بالجدل فالتكامل في كل نبضة نمو.

الحكمة التي يمثلها هنا سيدنا سليمان هي التي تكمن وراء البومة النذير المحذر وفي نفس القوت هي تمثل غلبة العقل والتعقل (وليس العقلنة)، العقل "القادر الحاسب الحاسب"، ولها أسماء أخرى في مدارس أخرى. نحن - في ثقافتنا - نبالغ في تقييم دور هذا الحكيم القابع داخلنا، وهو ليس بالضرورة مرادف للضمير، أو للأنا الأعلى، (فرويد)، أو حتى للذات الوالدية (إريك بيرن)، هو تنظيم يحترم الواقع بقدر ما يحتوي بقية مستويات الوعي ومحيط بها

الأرجح أن هذا المستوى الحكيم من الوعي قد يمثل تكثيقاً لمفهومين من مدرستين متباعتين: المفهوم الأول هو مفهوم يونج (كارل جوستاف) عن اللاشعور الجمعي وأن الإنسان عمره لا يبدأ يوم يولد ولكنه يحمل دهوراً من الحكمة والغرائز البتاءة في أعماق أعماقه، والمفهوم الثاني مستمد من لغة إريك بيرن (مدرسة التحليل التفاعلاتي) في حديثه عن حالة الأنا الوالدية التي تشمل الجد وجد الجد .. في التحليل الأعمق.. هذه الحكمة العميقة والجاهزة هي إشارة إلى أن التركيب البشري ممتد عبر الأجيال: ليس فقط بوراثة استعداد بذاته بالمعنى السطحي، ولكن بمعنى البصم ببرامج بيولوجية معقدة تتكون منها الذاكرة الجينية بكل طبقاتها.

ربما ما أردته هنا، أو ما وجدته، أو قرأته في هذه اللوحة، هو أن القديم المتجدد، والحكمة المحيطة، لهما تمثيل كامل في وجودنا، ومن ثم فإن استيعابهما وتمثلهما في الحاضر في تكامل مع طاقة الغريزة ودفعها هو السبيل الحقيقي لمسيرة التطور، وإلا فإهمال أى جزء جهلا أو خوفا لا ينتج إلا إنسانا ناقصا أو مشوها .

ودى صورة مين؟

عمره كام دهر؟

الشيخ قاعد وشه منور،

مركون على عصا بيفكر.

وعنيه بتشع الحكمة .

أسطورة المرأتين في قصة سيدنا سليمان، حين احتكمت إليه وكل منهما تدعى أنها أم الطفل، ثم حكم سيدنا سليمان المبني بأن الخل هو أن يشق الطفل مناصفة بينهما، قاصداً أن يتبين من هي الأم الحقيقية، ربما يكون فيها تلميح رمزي إلى الإنقسام الذى يحدث أثناء النمو للنفس البشرية، وهذا في تصورى هو ما يقابل الانشقاق المبكر حسب فكر المدرسة التحليلية الإنجليزية الحديثة (ميلان كلاين وفريون وجانترين). عندي أن الترجمة النفسية لهذه الأسطورة هي أن الأم التى تمارس أمومتها بنجاح هى التى تستطيع أن تتعهد هذا الانشقاق، لكنها ترفضه إذا كان انشقاقا يعنى الاغتراب المتباعد فى اضطراد، حتى أنها تفضل أن تحافظ على "كلية" حياة طفلها ولو مرحلة ما، حتى لو تعهدته أمٌ سيئة فى تلك المرحلة، وحين يكتشف سيدنا سليمان من هى الأم الحقيقية، لا يتحقق الانشقاق بمعنى الاغتراب أو الهلاك، ولكن يظهر الأمل فى خلخلة تؤدى إلى تحريك مرحلى فى رحاب أم مرنة، ومن ثم إلى تلاحم جدلى نام، وهكذا، فضلا عن الانشقاق الدورى الطولى من خلال نبضات الإيقاع الخيوى (دورات "النوم/الخلم/اليقظة" أساسا)،

"فاكرين القصة؟؟

مين أنقذ طفل الأم

من جشع الست الثانية !!؟

سيدنا سليمان.

" مين كلم نمل، وذل الملكة " ؟

- سيدنا سليمان

هذا النوع من تقديس الحكمة الغائرة فى وجودنا يعطى لهذه الحكمة قدرات وينسج حولها معجزات مبالغ فيها تسمح بـ، أو تدعو إلى ، اعتمادية معطلة للنمو، وإذا كانت حكمة سيدنا سليمان قد تجلت فى حكمه بقسمة الطفل ، فظهرت الأم الحقيقية،

فإن قدراته على التحكم في الجان (مستويات الوعي التحتية)، والتخاطب مع الحيوانات والحشرات والطيور، هي من قبيل هذا التقديس، وهكذا، يمكن أن يتجاوز هذا المستوى دوره الإيجابي بشكل أو بآخر، خصوصا في التربية.

هكذا تَعَرَّت أمامي طبيعة وحقيقة القوة الظاهرة التي تكمن وراء باب الحكمة الراسخة، وحينذاك قفزت إلى ذهني إشكالية علاقة هذا المستوى بالنمو عامة، وبتربية الأطفال بوجه خاص، وأنه حين تثبت هشاشة هذه القوة، وأنها قوة من فوق السطح، يفتقد الأطفال إلى من يلمهم إلى أنفسهم، بديلا عن التسبب بلا معالم، تحت رحمة القوى البدائية (الجان) أو الانشطار بلا عودة.

يبقى البومة كان عندها حق

طب فين الكذب وفين الصدق؟

وفين الضرب وفين الحب

وفين العفو وفين الذنب

إزاي نسمح لعيالنا:

بالشق، الضم، النبش، الود،

اللعب، الجري، العَد:

على عزف الناي

حانري عيالنا ازاي؟

وعيال لِيَّامْ دِي غَلَابَهْ،

لا في عَصَا تَرَحْمُهُمْ ولا حِكْمَهْ،

مِن مَسَّ الْجَان

والجان أَيَّامْنَا، لابسين جلد الإنسان.

ولا عاد بيهم الواحد منهم سورة "الكرسى"،

ولا سورة "الناس".

والحكمة مَا مَاتَتْ مِنْ مُدَّهْ.

ما فاضلشي إلا الحكمة الموضه،

تَلَقَّاهَا مَلْفُوفَهْ،

حوالين جِئَهْ شِكولاتَهْ، جَوَا الصالونات.

المخاطر البشرية التي تحيط بالبشر، وبالأطفال بالذات، من خلال القهر والسحق والظلم والبلبله والتخبط، وأحادية

التوجه، واستقطاب القيم، هي مخاطر واقعة ومتزايدة، وإذا لم نضع ذلك في الاعتبار في تربية الأطفال بتهيئة التناسب بين جرعات الخنان والقسوة وحسن توقيتهما ... فالنتيجة هي السحق تحت أقدام الشر المعاصر الذي استحوذ على طاقة العدوان واستعملها في العنف القاتل المغير على بعضنا البعض، هذا العدوان الصريح الذي جعل من الإنسان المعاصر قاتلاً لأفراد من نفس نوعه دون عائد بقائى.

لم يعد مطروحا حالياً ما يمكن أن يسمى " العصى الرحيمة" في تربية الأطفال (لا في عصا ترحمهم، ولا حكمة، من مس الجان)

لم يعد العنف البشرى العدوانى يرتدع بردع داخلى أو خارجى، ولم يعد للكبير أو الإله أو 'الحكيم قيمة فاعلة، مات كونفوشيوس في العصر الحديث، وأرى أن كل ذلك يمرنا أصلاً من التفاعل الجدلى الضرورى للنمو والتكامل، وقد بلغت تفاهة الحكمة المطروحة في السوق، واغتراب النصائح مبلغاً جعل الاستشهاد بأى من ذلك مدعاة للسخرية أكثر منه سبيلاً للنمو.

ثم يتجلى لى العجز الغائر وراء صورة هذا الشيخ المقدسة التي تعرت عن هشاشة داخلية، لكنني أكتشف أنه برغم إعلان موته، وأنه لم يتبق منه إلى ما يشبه الحكمة، مازال يستطيع أن يتألم، ليس لنفسه فحسب، بل لنا أيضاً، وهو ينبهنا أن يتولى كل منا أمر نفسه دون انتظار معجزة من مقدس، بل إنه نفسه يطلب أن نلحقه هو نخفف عنه ما ألم به، لا أن يلحقنا لينقذنا مما آل إليه حالنا،

- إلقنا يا عمى الشيخ شُفناً .

- "ألحقكو ازائى؟

إنت اهل؟ ولا بُتستهبِل؟

دانا صورة"

دا انا ميت.

وأبص كويس جوا عين الصورة

وألقى النملة بتزحف في بياضها

والنمل اصحابه من مدة

إنما كات عينه يا خوانا مليانة ألم،

مش قادر يستحمل ألمه، وببيكى بدال الدمع الدم

- إعمل معروف شيل النملة دى بتقرصنى،

وعصاتى السوس بهلها،

حانكفي على وشى تو ما تبقى دقيقتى،

حين يتكشف هذا المستوى من الحكمة الطيبة، والقدرة الواعية، عن كل هذا الضعف الذى يحتاج إلى أن يعان لا أن يعين، دون إعداد كاف لضمان استمرار النمو في اتجاه التكامل، أى النضج الحقيقى، تنقض القوى البدائية بعنفوان فجائتها (الجان) لتخرب الدنيا، وهى تبرر النكوص وما يشبه الخيبة، وكذا تبرر وتدعم اللذة قصيرة العمر.

والجان الإنسان الجن،

حايقيم أفراحه مش حايون

في الخمارة: في الحارة السد

في الدائرة المقفولة الضلمة، ما فيهاش حد

"دقى يا مزيكا ،

شمنا يا ويكا".

إن ما يمثله القديم الحكيم .. سواء بجذوره في اللاشعور الجمعى، أو فاعليته كحالة من حالات الأنا الوالدية أو علاقاته الزائفة المغلقة على نفسه .. هو هذا الذى ينطلق حين ينكشف عجز هذه الحكمة عن قيادة واحتواء سائر المستويات.

وفي استغاثة أخيرة يصيح الشيخ الميت المتألم :

إعمل معروف شيل النملة

فأستجيب رحمة به واحتراما لأله، وإذا بي أكتشف وراء كل هذه الحكمة، مستوى وعى آخر لم يكن في حسابان.

وأحاول اشيلها،

أتاريها الثانية زرار،

والباب المسحور بيُرَيَّق.

نعم باب آخر لم يكن في الحسابان.

وإلى بقية اللوحة في الحلقة القادمة.

- يلاحظ أن المتن هنا تعدل قليلا عن ما ورد في النشرة السابقة الأسبوع الماضى.